

«داعش»: منابت أساليب وتأثيرات

محمد خواجه *

استهلال

ليست ظاهرة "داعش" وأخواتها منقطعة السياق عن شبليات لها، عرفها التاريخ الإسلامي خلال أزمنته المديدة، من أبرزها الخوارج والحشاشون، وكل من توسّل التطرف والعنف لإخضاع مجتمعه وفرض رؤيته عليه. وإذا كان العنف هو المعيار، فأجهزة عسس الإمبراطوريات المتعاقبة وورثاتها حتى يومنا هذا، من نظم قمع واستبدادٍ لا تقلّ إجراماً؛ فما ارتكبه الحجاج بن يوسف الثقفي، مثلاً لا حصراً، من قتل وتعذيب بزّ بوحشيته ارتكابات أكثر الجماعات الدينية تطرفاً. ويشبه التاريخ الإسلامي، بحقباته المضيئة والمظلمة، بقية تواريخ المجتمعات البشرية الحافلة بالقتل والظلم والاستعباد والاستعمار... فما عُرف باستكشافات كريستوف كولومبس للقارة الأميركية، حصدت قرابة مئتي ألف قتيل من سكان البلاد الأصليين. وتلتها، على مدى قرون، جولات استئصال لملايين الهنود الحمر على أيدي المستعمرين البيض الجدد. وماذا عن الحروب الصليبية والدينية، وما أفرزته من كراهية غير مسبوقة؟ وكذلك الصراعات الكولونيالية على المستعمرات بين الإمبراطوريات الأوروبية التي فتكت بحياة أكثر من مئة مليون إنسان خلال القرن العشرين وحده؛ هذا من دون إغفال جرائم الحقبة الستالينية في الاتحاد السوفياتي، والنازية والفاشية في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا...

لكن فارق المقارنة بيننا وبين أمم الأرض، أنّ بعض غلاة العرب والمسلمين لم يفقهوا دروس التاريخ، كما فعلت شعوب عديدة، وما هم يصرون على اجترار حقبات سوداء موروثة، واستنساخها من جديد، مسقطين منطق تبدل الأحوال وتغير الزمان والمكان.

إحياء الجهاد

وفي حاضرنا الزمني، شكلت الحرب الأفغانية (١٩٧٩) فرصة لإعادة إحياء قوى "جهادية"، أنبتت تنظيم القاعدة لاحقاً. وقد ولدت في كنف التحالف الأميركي الباكستاني السعودي

(* باحث لبناني في الشؤون العسكرية والاستراتيجية).

لمحاربة الجيش السوفيياتي، وفقاً لخطة زبغنيو بريجنسكي. حينها، تولّت واشنطن الرعاية والتسليح وإدارة دقّة الحرب، وتكفلت إسلام أباد مهام التدريب وإيواء المجاهدين على أرضها. أما الرياض فتقمصت دور الممول والداعية لتجنيد الشباب المسلم لمقارعة أعداء الدين في أفغانستان.

بعد سنوات من انتهاء الحرب مع السوفييات، وعودة المجاهدين إلى أوطانهم، دبّ الخلاف مع رعاتهم السابقين الذين تعاملوا معهم كجماعة منتهية الصلاحية. وعلى أثر أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وانطلاق حروب بوش الابن في المنطقة، غدت العلاقة بين "حلفاء" الأمس ملتبسة ويكتنفها الغموض، بحيث بات ظاهرها يتّسم بالعدائية والقطيعة، وباطناتها فحواه التعاون والتشغيل بين أجهزة الاستخبارات المتنوعة، وبعض الجماعات الجهادية.

من هي داعش؟

يعود جذر الدولة الإسلامية في العراق والشام إلى "قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين" التي أسسها الأردني أبو مصعب الزرقاوي العام ٢٠٠٤. وبعد عامين، توحدت معها اثنتا عشر جماعة متشددة ليشكلوا، "مجلس شورى المجاهدين". وإثر مقتل الزرقاوي تسلم القيادة أبو عمر المهاجر لحين تأسيس تنظيم "دولة العراق الإسلامية"، نهاية العام ٢٠٠٦، بزعامة أبي عمر البغدادي الذي قتل (١٩/٤/٢٠١٠) فخلفه أبو بكر البغدادي^(١).

إنها تفرعية من تنظيم القاعدة الذي تحوّل بعد مقتل بن لادن (٢/٥/٢٠١١) إلى جماعات كونفدرالية متفلتة. وقد اختلفت داعش مع أيمن الظواهري حول أولوية الصراع ومناطق النفوذ وتوقيت إعلان الخلافة الإسلامية، أي لا علاقة للأمر بالمنبت الأيدلوجي المشترك. ونجحت حتى الآن، من خلال المبايعات التي تنهال عليها من فروع القاعدة المنتشرة في أكثر من قارة، بسحب البساط من تحت التنظيم الأم. وكان بن لادن قد أعطى الأولوية لمحاربة "الصليبية" الغربية والأنظمة الملحقة بها، ليتفرّغ بعدها "لتطهير" المجتمعات من الأقليات الإسلامية والنصارى والمناهضين لفكرة دولته الدينية من أهل السنّة. لكن داعش قلبت السلّم، لتصبح تصفية الأقليات وتهجيرها الهدف الأول، ربما انسجاماً مع تصورات المفكر السلفي الإستراتيجي، عبدالله بن محمد، الناصّة على "أنه من الواجب علينا قبل أو بعد إعلان دولة الخلافة طرد اليهود وتهجير النصارى والدروز والنصيرية والبهائية، بالإضافة إلى الشيعة وعبد الشيطان وغيرهم من المشركين في أراضي منطقة الشام كافة"^(٢). واللافت، أن الأولويات لدى داعش وبقية فروع القاعدة لا تقارب محاربة العدو الإسرائيلي بنص صريح، شبيه بما تعلنه جهاراً تجاه مكونات عربية وإسلامية. وتخلو ذكراتنا من تسجيل أي فعل ميداني لهذه الجماعات ضد الكيان الصهيوني.

إن عملية تبدل الأولويات والأهداف لم تحدث فجائياً، فقد مهدت لها جماعات القاعدة في

(١) باتريك كوكبيرين،

داعش عودة الجهاديين،

دار الساقي، بيروت ٢٠١٥،

ص ١١٦.

(٢) عبدالله بن محمد،

المذكرة الإستراتيجية، دار

التمرد، سورية، ٢٠١٤، ص

٩٤.

العراق التابعة لأبي مصعب الزرقاوي، باستهدافها المواطنين الأبرياء بالتفجيرات الانتحارية، بخاصة الشيعة، لتجعلهم هدفاً يتقدم على محاربة الاحتلال الأميركي، بقصد إثارة الفتنة بين المسلمين.

المنبت الفكري

ما يميز داعش عن كثير من التنظيمات الجهادية، أنها تتبع الوهابية "الطهرانية" السابقة على شراكة الشيخ والأمير التي جمعت محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود في الدرعية. شراكة أضفى فيها الأول على الثاني الشرعية الدينية للملك، مقابل الإسهام في نشر الدعوة الوهابية ورعايتها. لكن بعد معركة روضة السبلة (١٩٢٩)، والقضاء على "إخوان من أطاع الله" التي تمثل الوهابية الراديكالية، بات الملك عبد العزيز بن سعود في موقع المتقدم، وتراجعت المؤسسة الدينية من الشراكة الكاملة إلى صاحبة نفوذ، مهمتها مراقبة "تدين" المجتمع السعودي، ونشر الفكر الوهابي في الخارج.

في حين "أن داعش التي أعلنت "دولة الخلافة الإسلامية" ترفض نهج الوهابية في البحث عن نصير سياسي يشاركها السلطة بشكل كامل، في حالة محمد بن سعود، أو تضمن نفوذاً تحت سلطانه كما في حالة الملك عبد العزيز ودولته"^(٣). ففي دولة خلافة أبي بكر البغدادي أصبح هو الشيخ والأمير معاً، وتحاول داعش التشبّه "بالدولة الراشدة" في صدر الإسلام حين كان الخليفة هو الإمام والقائد السياسي والعسكري في آن واحد. هذا الاختلاف في الرؤى جعل داعش تكفر الملكة السعودية، التي بدورها صنّف مفتيها عبد العزيز آل الشيخ، داعش بالعدو الأول للإسلام.

الرعاية الخارجية

ما تقدم من تبيان الاختلاف بين "دولة الإسلام في العراق والشام" ومنابتها الفكرية لا يطمس وجه التعاطف والاحتضان من جانب هذه البيئات مع "داعش" بقصد استثمارها في الحرب ضد إيران وسوريا والعراق. وقد رفض "علماء الصحوة" في المملكة التجاوب مع نداء الملك عبد الله بن عبد العزيز بالتصدي لظاهرة "الدولة الإسلامية" فكرياً، لإضعاف تأثيرها في أوساط الشباب، لأنه لا يمكن هزيمتها بالوسائل العسكرية فقط"^(٤).

وقد يكون نائب الرئيس الأميركي جو بايدن الأكثر وضوحاً في اتهامه المباشر لفئات متطرفة في الخليج كما لتركيا برعاية صعود داعش والقوى المتطرفة في المنطقة؛ وذلك أثناء محاضرة له في جامعة هارفرد، مطلع تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٤. رغم أنه أقدم لاحقاً، على تقديم اعتذار سياسي لهذه الدول.

أما تركيا التي تربطها حدود طويلة مع سوريا والعراق، فقد آثر زعيمها أردوغان على أن

(٣) بدر الإبراهيم، داعش

والوهابية والتكفير،

الاختلاف والتشابه، دراسة

غير منشورة.

(٤) عبد الباري عطوان،

الدولة الإسلامية، دار

الساقي، بيروت، ٢٠١٥،

ص ١٦.

تلعب دور رأس الحربة ضد نظامي هذين البلدين. فكانت على مدى سنوات ولا تزال، الممر الآمن وقاعدة التدريب والتسليح والإيواء وغرفة إدارة العمليات والمستشفى لكل مناهض حكومتي دمشق وبغداد، فضلاً عن كونها سوقاً لتصريف النفط السوري والعراقي المهرب. ما كان بمقدور هذه الدول وغيرها سلوك هذا المسلك من دون رضى واشنطن التي وقّرت، مع حلفائها الغربيين، البيئة الإقليمية والدولية الملائمة لتدفق "الجهاديين" من رياح الأرض الأربيع إلى الميدانين السوري والعراقي. ومعيار المقاربة الأميركية للصراع الدائر فيهما، التخلص من الجماعات المتطرفة، وإرهاق إيران وحلفائها في حروب داخلية خدمة للدولة العبرية صاحبة المصلحة الكبرى في تدمير الكيانات القائمة، وخلق "إسرائيليات" دينية متناحرة تدور جميعها في فلكها.

الفرصة التاريخية

وجدت الجماعات "الجهادية" في "الربيع العربي"، لا سيما الاضطراب العراقي والاحتلال السوري، فرصتها التاريخية للانتقال من مرحلة "بناء القدرات العسكرية والاستخباراتية والتنسيقية والإعلامية والطبية... إلى مرحلة التمكين التي تقدّر القيادة فيها، أن العدو على وشك الانهيار العسكري في إقليم معين. لتبدأ عمليات الفتح والسيطرة على المناطق بهجمات خاطفة ومتزامنة تنتهي بتطهير الإقليم"^(٥).

لقد أظهرت سيناريوهات "الربيع العربي" تداعي الأنظمة القديمة وضعف القوى البديلة، ما أشاع حالاً من الفوضى، انسلت من مسلماتها القوى المتطرفة المحلية، وتلك الوافدة من الخارج. ويتبع هؤلاء تجربة حركة طالبان التي استغلت فقدان الأمن، نتيجة تقاتل الجماعات المسلحة فيما بينها، لتدخل المدن والبلدات الأفغانية كمنقذ، قادر على توفير إنموذج من الأمان للمواطنين مقابل إدارة المجتمع وفقاً لرؤيتها الدينية المتشددة. وقد أورد عبدالله بن محمد في "المذكرة الإستراتيجية" "أن السيناريو المتوقع في المنطقة العربية عموماً يقود إلى حال من الاضطراب العام والفوضى العارمة، التي ستؤدي بدورها إلى المجاعات والهجرات الجماعية. عندها، سيبحث الناس عن أهم خدمة وهي الأمن، وسيعطون الولاء لمن يوفرها لهم. فالأمر يبدأ بتوفير الأمن كسلعة أساسية يستطيع المجاهدون تقديمها، ثم يتطور الأمر بعد ذلك. وهنا يأتي دورنا..."^(٦). هذا المنطق يتكامل مع دعوة "أبو بكر ناجي" إلى توحيش المجتمعات عبر رفع منسوب العنف والفوضى، لإعادة صياغتها وفقاً للمنهج "الجهادي". وفق هذا السياق، استغلت داعش حال الفوضى والنفور والكيدية في المحافظات الغربية من العراق، وكذلك تقاتل الجماعات السورية المسلحة، مقدّمة نفسها منقذاً وحامياً، فبسطت سلطتها على مساحة عشرات آلاف الكيلومترات المربعة، من محافظة نينوى إلى محافظة أديب في الشمال السوري.

(٥) عبدالله بن محمد، المذكرة الإستراتيجية، مرجع سابق، ص ٧٥ - ٧٦.
(٦) عبدالله بن محمد، المرجع ذاته، ص ٧١.

صعود داعش

في نهاية العام ٢٠١١، أسهم البغدادي بولادة جبهة النصرة بقيادة "أبو محمد الجولاني"، لتكون فرع القاعدة في بلاد الشام، فعدت خلال بضعة أشهر من أبرز الفصائل المقاتلة في سوريا. وفي ٩/٤/٢٠١٣، أعلن البغدادي إدماج جبهة النصرة مع دولة العراق الإسلامية، لتصبح "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، بالتزامن مع دفع المزيد من قواته إلى الأراضي السورية. رفض الجولاني فكرة التوحيد معلناً البيعة لأيمن الظواهري، ففُتح باب التقاتل بين التنظيمين "الجهاديين". بعد صعود الخلاف إلى السطح، بدأت داعش بتنفيذ خطة طموحة أدت إلى طرد مسلحي النصرة، ومعها فصائل مقاتلة سورية أخرى، بدءاً من معبر البوكمال الحدودي مع العراق ومحافظة الرقة إلى أرياف دير الزور والحسكة وحلب ومناطق إعزاز ومارع والباب القريبة من الحدود التركية. وتحوي هذه المناطق ثروات نفطية ومصادر رئيسة للحياة وسدوداً منتشرة على ضفاف نهر الفرات ومحطات توليد كهرباء^(٧) وحالياً، تسعى لمدّ أذرعها باتجاه محافظة درعا والريف الدمشقي.

بعد الإضاءة السريعة على ولادة تنظيم داعش وصعود نجمه، سنقارب أداءه العسكري بشقيه الإستراتيجي والتكتيكي، وهو بالأساس المحور الرئيس في بحثنا، لتبيان نقاط قوته وضعفه بموضوعية، دون تهوين أو تهويل. تهويل أسهمت فيه قوى دولية وإقليمية، لإظهار داعش أسطورة لا تقهر، ظناً منها، أنها بذلك تُرهب خصومها. وعندما تحين لحظة مقاتلتها جدياً، يمكن لهذه القوى تسمية معركتها بالحرب العالمية على الإرهاب!!!

الميدان العراقي

في تموز/يوليو ٢٠١٣، هاجم مسلحو دولة العراق الإسلامية سجن أبي غريب القريب من مدينة الفلوجة، وأطلقوا سراح نحو ٥٠٠ سجين أغلبهم من قياداتها ومقاتليها. وقد أشتر هذا الهجوم إلى مرحلة جديدة، بدأها التنظيم المتشدد لتوسيع نطاق نفوذه؛ فتمكّن مع حلول العام ٢٠١٤، من السيطرة على مدينة الفلوجة وأجزاء واسعة من محافظة الأنبار التي تشكل ثلث مساحة العراق. وفي شهر آذار/مارس، نظّم عراضة عسكرية في شوارع الفلوجة للتباهي بالاستيلاء على أليات وأسلحة أميركية غنمها من الجيش العراقي.

لكن الوثبة الأكبر حدثت في شهر حزيران/يونيو، بالسيطرة على مدينة الموصل وأجزاء كبيرة من محافظات نينوى وصلاح الدين وديالى وبابل وسامراء، التي سقطت بمعظمها بيد داعش وبقايا البعثيين المتستريين خلف برقع النقشبندية من دون عناء يذكر. فحين يستولي بضعة آلاف من المقاتلين على مدينة الموصل التي يزيد عديد حاميتها عن فرقتين عسكريتين بكامل عتادهما الحربي، لا يمكن الحديث عن مواجهات ومعارك. وتقتضي الدقة الإشارة إلى أن الموصل وغيرها من المدن والحواضر اعتبرت خارج السيطرة الفعلية

(٧) صحيفة الشرق الأوسط، ٢/١١/٢٠١٤.

لحكومة بغداد، قبل سقوطها بفترة طويلة. وكانت "دولة العراق الإسلامية" تُجبي ملايين الدولارات شهرياً كأتاوة من المعابر والشركات والمشاريع العمرانية...

الفساد صنو الهزيمة

أما عن أسباب التمدد السريع لنفوذ داعش وتراجع سيطرة القوات الحكومية، فيلخصها جنرال عراقي متقاعد بالقول: "الفساد، الفساد، الفساد، في الواقع لم يكن للعراق جيش وطني، لقد نخر الفساد الجيش على الصعد كافة. وكان ممكناً لجنرال أن يصبح قائد فرقة بتكلفة مليوني دولار، ليقوم بعد ذلك، باسترداد استثماره من خلال الرشى والابتزازات، فرضاً رسوماً قسرية على كل مركبة تمرّ عبر نقطة تفتيش"^(٨). وكانت البداية العام ٢٠٠٥، حيث شرّع الأميركيون الفساد في الجيش العراقي، بالطلب من وحداته الاستعانة بمصادر خارجية لتأمين التغذية والإمدادات اللوجستية الأخرى. "فكان يُدفع لقائد الكتيبة مبلغ يغطي وحدة مؤلفة من ٦٠٠ جندي، بينما عديد وحداته ٢٠٠ جندي فقط، ليضع الفارق في جيبه"^(٩). وكتدليل على حجم الفساد المستشري، أشار الرئيس حيدر العبادي إلى وجود ٥٠ ألف اسم وهمي على كشوفات القوات المسلحة!!!

ما تقدم غيض من فيض الفساد المؤسساتي، وهو، مع أسباب أخرى، أدى إلى كارثية الوضع الذي شهدناه، منها: التركة الثقيلة للاحتلال الأميركي، وأخطاء الحكومة المركزية، وتصارع المكونات المجتمعية فيما بينها، وتحريض دول محيطة بالعراق مثل تركيا والسعودية.

هذا الوضع أتاح لآلاف المتطرفين التكفيريين وشذاذ الآفاق بالوصول إلى تخوم بغداد، وتهديد الخاصرة الجنوبية للعراق. ولولا الموقف الوطني الذي جسّدته فتوى المرجع السيد علي السيستاني، عقب سقوط الموصل، واستجابة مئات آلاف الشباب وانتظامهم ضمن فصائل الحشد الشعبي لمؤازرة القوات المسلحة، لكانت الأمور أصعب وأكثر كارثية.

وإذا أردنا تحديد المسؤوليات، فالمسؤولية الأولى تقع على عاتق الاحتلال الأميركي الذي حلّ الجيش العراقي، ورمى مئات آلاف الضباط والجنود كمنبوذين في الشارع. ويشير عمران أدهم إلى "أن معظم قادة داعش وأمرائها ومقاتليها هم من بقايا الجيش العراقي الذي حلّه الحاكم الأميركي بول بريمر بعد الاحتلال مباشرة"^(١٠). وكعينة على دور ضباط الجيش السابقين في صعود داعش وتنامي قدراتها العسكرية والإدارية، نشير إلى أن نائب "ال خليفة" البغدادي "أبو علي الأنباري" وهو "أبو مسلم التركماني" (يُعرف أيضاً باسم فضل أحمد عبدالله الهياي) كانا ضابطين في الحرس الجمهوري والاستخبارات العسكرية التابعين لجيش صدام حسين. كما يوجد في مجلس الدفاع والأمن والاستخبارات الموكّل بالمحافظة على سلامة أراضي دولة "الخلافة"، أربعة قادة من

(٨) باتريك كوكبيرن، داعش عودة الجهاديين، ص ٧٢ - ٧٣.

(٩) باتريك كوكبيرن، المرجع ذاته، ص ٧٢.

(١٠) عمران أدهم، النفاق الأميركي، شركة الشرق الأوسط لتوزيع المطبوعات، بيروت، ٢٠١٤، ص ١٦٥.

الضباط الكبار السابقين. كان من الأنسب بعد الغزو، الحفاظ على المؤسسة العسكرية، وطردهم الفاسدين المرتبطين بالنظام السابق عضويًا، ومعاقبة كبار الضباط الذين ارتكبوا جرائم بحق مواطنيهم. لكن الأميركي عمل بوحى مصلحة إسرائيل التي صنفت الجيش العراقي، دوماً، كظهير استراتيجي للجبهة الشرقية، يشكّل خطراً على أمنها القومي. ما جرى من هزيمة في شهر حزيران/يونيو ٢٠١٤، يُوجب، برأينا، محاكمة القادة المسؤولين عنها، وتسريح الفاسدين والمنتفعين الذين يعتبرون الجيش مصدراً للإرتزاق وجمع الثروات؛ وإعادة هيكلته على قاعدة الانتماء والكفاءة، وتأهيله وفقاً لعقيدة وطنية جامعة، تحفّز روح التضحية لدى القائد والجندي في آن واحد. وكان السيد أحمد صافي، الممثل الشخصي للسيد السيستاني، قد دعا في إحدى خطب الجمعة "إلى تطهير المؤسسة العسكرية من الفساد المالي والإداري، وأن تتسهم المواقع العسكرية شخصيات وطنية مخلصة وشجاعة. كما أشار إلى أن بعض المفاصل العسكرية والأمنية لم تبّن بطريقة مهنية وعملية، خلال الفترة السابقة، بالرغم من الموارد المالية الهائلة التي أنفقت عليها^(١١). لقد صرفت الحكومة العراقية على الجيش المؤلف من ٣٥٠.٠٠٠ جندي والأجهزة الأمنية، ٤١.٦ مليار دولار، خلال السنوات الثلاث التي تلت الانسحاب الأميركي.

هيكلية الجيش

يبدو أن القيادة العراقية الجديدة المستقلة بدعم المرجعية الدينية، تنتهج مسار تصحيح أوضاع المؤسسة العسكرية، وإن بوتيرة بطيئة متدرجة، نظراً لاصطدامها بشبكات الفساد المتغلغلة داخل بنية الدولة الفتية ومؤسساتها. وفي هذا السياق، تُدرج قرارات رئيس الوزراء أحمد العبادي، القاضية "بإعفاء ٢٦ ضابطاً من مناصبهم، وإحالة ١٠ آخرين على التقاعد، وتعيين ١٨ ضابطاً في مناصب جديدة^(١٢). وشملت قرارات الإعفاء رئيس الأركان، وقادة عمليات بغداد والأنبار والفرات الأوسط والقوات البرية وأمانة سر وزارة الدفاع. كذلك تمت إحالة ٢٠ ضابطاً أمنياً كبيراً على التقاعد. وبرر مكتب الرئيس العبادي قرارات التطهير "بأنها لإعادة الثقة بالقوات المسلحة عبر اتخاذ إجراءات حقيقية، ومحاربة الفساد على مستوى الفرد والمؤسسة^(١٣). وأكد العبادي "أنه ماضٍ في حملة الإصلاحات، كاشفاً عن حملات تثار لإسقاطه. لكن هذا لن يثنيه عن متابعة حملة الإصلاحات حتى لو كلف الأمر اغتياله^(١٤).

تداعيات الوثبة الداعشية

أدت "وثبة حزيران إلى رزمة "مزايا" لمصلحة التنظيم المتشدد، وتداعيات سلبية على الوضعين العراقي والإقليمي، منها:

(١١) وكالة نون العراقية،

٢٠١٤/١١/٧.

(١٢) وكالة رويترز،

٢٠١٤/١١/١٣.

(١٣) وكالة رويترز،

٢٠١٤/١١/١٣.

(١٤) وكالة نون العراقية،

٢٠١٤/١١/١٥.

١ - إن عملية الاستيلاء على مساحات من الجغرافيا العراقية أعطى لداعش قوة دافعة من حيث تعزيز النفوذ ووضع اليد على مصادر ثروات نقدية ونفطية ومائية كبيرة، ناهيك عن الإنجاز الميداني السهل ضد قوات تفوقها عدداً وعتاداً، ما أظهرها بصورة القوة الكاسحة التي لا تهزم!!

٢ - مهد استيلاء داعش على مساحات مترامية من الأراضي في العراق وسورية لإعلان "دولة الخلافة الإسلامية"، قاطعة الطريق على القيادة المركزية لتنظيم القاعدة، مظهره إياها بمظهر الضعيف العاجز. وتدرك داعش أهمية فكرة "الخلافة" في دغدغة مخيال شرائح من الشباب المسلم، فيسهل عليها عملية تعبئتهم وتجنيدهم ضمن صفوفها. في هذا السياق، يشير تقرير غربي إلى التحاق أربعة آلاف مقاتل من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق، بتنظيم داعش في العراق وسورية. وقد نبّه عبد الله بن محمد إلى أهمية الخلافة في المشروع الإسلامي بالقول: "الفكرة الوحيدة التي يمكن أن تجمع شتات العرب والمسلمين هي الخلافة. فالخلافة الإسلامية هي المشروع السياسي الوحيد الذي سيعيد الاستقرار والأمن إلى المنطقة، ويحفظ ثروات الأمة من مؤامرات الدول العظمى" (١٥).

٣ - استفادت داعش من زخم انتصارها السهل في العراق، واستيلائها على نحو ١٥٠٠ آلية، من بينها دبابات أبرامز وسيارات مصفحة ومدفعية ثقيلة وصواريخ وقذائف وذخائر. فأقدمت على مهاجمة أهداف استراتيجية في سورية: مثل حقل الشاعر في صحراء تدمر شرقي حمص (٢٠١٤/٧/١٧)، ومقرّ الفرقة ١٧ (٢٠١٤/٨/٢٥). وفي مطلع شهر أيلول/سبتمبر، استولت على مواقع اللواء ٩٣، ومطار الرقة في الرقة إثر معارك ضارية. علماً أن مواقع الجيش في محافظة الرقة، كانت محاصرة منذ وقت طويل، ويتم إمدادها بواسطة الطائرات العمودية. وبعد أشهر، أعادت داعش الكرة في محافظة ديرالزور، ساعية للسيطرة على مواقع الجيش السوري فيها، بخاصة مطار ديرالزور الحربي. وبالفعل، نفذت هجمات كبيرة، مطلع كانون الأول/ديسمبر، على المطار ومحيطه، مستخدمة كالعادة الانتحاريين والانغماسيين وتكتيك الموجات المتعاقبة... لكنها باءت بالفشل، وسقط لداعش نحو مئة قتيل. وقد لعب الطيران السوري دوراً مهماً في بعثرة القوى المهاجمة، وضرب نقاط التحشيد وخطوط الانطلاق. وهذا ما دلّ على امكانية استيعاب الجيش لتكتيكات داعش وإبطال مفاعيلها.

٤ - لم يقتصر الأمر على الميدان السوري؛ فانتشاء الجماعات "الجهادية" وصل رذاذه المسموم إلى لبنان، حيث أقدم مسلحو داعش والنصرة على مهاجمة مراكز الجيش اللبناني في محيط بلدة عرسال البقاعية (٢٠١٤/٨/٢)، ومن ثم نقلوا المعركة إلى مدينة طرابلس ومحيطها (٢٠١٤/١٠/٢٦). وكان المخطط التفكيري، بحسب ما أورده قائد الجيش العماد جان قهوجي، يهدف إلى إنشاء إمارة إسلامية عبر ربط الجرود البقاعية

(١٥) عبدالله بن محمد، المذكرة الإستراتيجية، مرجع سابق، ص ١٩.

بالبحر، لكن يقظة الجيش وجهوزيته، أدياً لإحباط المخطط، ومحاصرة هؤلاء المسلحين في الجرد العرسالية، وتفكيك جزء كبير من بنيتهم القتالية في الشمال اللبناني. وغداة معركة طرابلس، تعرض أداء الجيش اللبناني لانتقادات مبطنة تناولت تسوية ما، مهدت لإخراج المسلحين من باب التبانة. هذه الانتقادات استوجبت منّا التوقف، لنستشهد بمضمون قول الإستراتيجي الصيني صن تزو: إن المارك مرهونة بنتائجها وليس بمجرياتها. وإن أنجحها تلك التي تُكسب من دون إراقة الدماء. لقد نجح الجيش اللبناني في إدارة معركة طرابلس التي أدت، فعلياً، لإخراج المسلحين، وتجنّب المدينة وأهلها المخاطر والمهالك، وتحويل المواجهة من معركة عسكرية مكلفة إلى عملية أمنية واسعة أفضت، حتى الآن، إلى تفكيك العديد من الخلايا الإرهابية، واعتقال أفرادها من دون وقوع خسائر بين صفوف العسكريين والمدنيين...

البنية القتالية

دلّت المعارك التي خاضتها داعش في الميدانين العراقي والسوري على مستوى عالٍ من التنظيم والتخطيط والتنفيذ، وأظهرت أنها ليست مجرد ميليشيا مسلحة محدودة الأهداف، بل قوة عسكرية تملك كفاءة قتالية احترافية ذات مطامع توسعية، يديرها عقل إستراتيجي مدبّر. والدلالة، ما شهدناه خلال فترة وجيزة نسبياً، من تمدد سريع لقواتها على ضفاف نهرَي الفرات ودجلة، وسيطرتها على عدد من السدود الكبرى في البلدين، فبات بمقدورها التحكم ببعض مصادر المياه ومحطات توليد الكهرباء. إضافة إلى انتشارها على خطوط الطاقة واحتلالها المنشآت النفطية لتوفير مصادر مالية ثابتة، وحرمان الخصم من عناصر قوته الاقتصادية. هذا من دون إغفال تركيزها على المناطق الزراعية - الرعوية المحاذية لحوض نهر الفرات، لا سيما في منطقة الجزيرة الأرياف الشرقية من سورية. هذه المناطق شكلت الحواضن الاجتماعية لداعش والجماعات المتشددة، حيث تسهل عمليات التعبئة والتجنيد، بفعل عاملين أساسيين: الأول: شح الأمطار إلى حد الجفاف في السنوات الأخيرة، وتأثيرها السلبي على الإنتاج الزراعي ما أدى إلى انتشار الهجرة والبطالة. الثاني، السياسات الاقتصادية التي اتبعتها الحكومات المركزية وفقاً "لإرشادات" البنك الدولي، وأسهمت بمزيد من إفقار الريف لمصلحة حفنة من الملاكين الجدد.. أما من حيث تكوين داعش، فيمكن اعتبارها تنظيمياً أممياً، يتكون هيكله القتالي من عراقيين وسوريين وعرب و"مجاهدين" وافدين. ولديه نظام تعبئة ناشط يستخدم وسائل الميديا الحديثة، لا سيما مواقع التواصل الاجتماعي لتجنيد الشباب واستقدامهم من بلدان القارات الخمس، إلى ميادين "الجهاد" في العراق وسورية. يدل هذا المعطى على حيوية استقطاب تميّز تنظيم داعش عن بقية الجماعات "الجهادية".

لكن في الوقت ذاته، تتيح عملية تجنيد الأجانب الفرصة لأكثر من جهاز استخبارات، لاختراقه وزرع العملاء بين صفوفه. وكشفت مسارح العمليات، أن هناك من يزود طائرات التحالف الدولي، أحياناً، بمعلومات دقيقة عن أهداف داعشية منها مقرات قيادية جرى استهدافها. ولضبط عمليات تجنيد الأجانب، وتقليل الاختراقات الاستخباراتية، اشترطت داعش حصول المتطوع الجهادي على تزكية مشايخ مناصرين لها في بلد الانطلاق.

في بدايات نشاطه، إبان الاحتلال الأميركي للعراق، كان عديد مقاتلي التنظيم المتشدد لا يزيد عن بضعة آلاف. لكن بعد دخوله الميدان السوري ومبايعة فصائل مسلحة له، وغزوة الموصل، تخطى الرقم عشرات آلاف المقاتلين. ويمكن الجزم، أن ما أعلنه راين ترايابن المتحدث باسم وكالة المخابرات الأميركية "بأن عدد مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسورية يتراوح بين ٢٠ - ٣١ ألفاً و ٥٠٠ مقاتل" (١٦) لا يمت إلى الواقع بصلة، ولا ندري الغاية من إيراده. وهل بمقدور هذا العدد من المقاتلين تغطية مسرح عمليات ممتد من قضاء تلعفر في أقصى شمال غرب العراق إلى جرود القلمون في غربي سورية؟ وإذا كان الرقم المشار إليه صحيحاً، أيستحق حشد قدرات ٦٠ بلداً ضمن التحالف الدولي لمحاربه. تشبه داعش من حيث التركيبة القتالية، الجماعات "الغوارية"، إلى حد ما، التي تعتمد في مراحل انطلاقها الأولى أساليب حرب العصابات، نظراً لإمكانياتها المحدودة. فتلجأ إلى نصب الكمائن والإغارات النارية وزرع العبوات مستخدمة مجموعات صغيرة متحركة تتفادى المواجهات المفتوحة مع العدو (على قاعدة إضرب واهرب)، لكن مع تطور قدراتها تنتقل من العمليات البسيطة إلى المركبة التي تشارك فيها مجموعات قتالية كبيرة ضد هدف أو أكثر في التوقيت ذاته.

اعتمد تنظيم داعش عنصراً جديداً من أساليب العصابات، تمثل بالانتحاريين المزودين بأحزمة ناسفة وسيارات مفخخة، كأسلوب رئيسي في قتاله. ومع توسع نشاط هذا التنظيم، وحصوله على أسلحة متطورة من جهات "صديقة"، واغتنامه أسلحة ومعدات ثقيلة من الجيشين العراقي والسوري وجماعات المعارضة السورية المسلحة، انتقل إلى مرحلة جديدة فرضت تطوير هيكله القتالي الذي بات يتسع لوحدها وحدات عسكرية شبيهة نظامية، مسلحة بالدبابات والآليات ووسائل الدعم الناري. وقد شهدنا نشاط هذه الوحدات في غزوات العديد من المدن والبلدات العراقية، والهجمات على مواقع الجيش السوري، ومناطق نفوذ الأحزاب الكردية. وما لحق بهيكل داعش القتالي من تطور بنيوي ليس بجديد، وبمعزل عن الفارق القيمي الشاسع، فهي تشبه أغلب حركات الأنصار (المقاومة) الأوروبية في زمن الاحتلال النازي، ومقاتلي الفيتكونغ الفيتناميين، التي انتقلت بعد اشتداد عضدها، من مرحلة العمليات الصغيرة الخاطفة إلى السيطرة على مناطق واسعة، وتحصينها لمنع الخصم من استردادها مجدداً، والتهيؤ للانقضاض على المزيد من الأراضي...

(١٦) وكالة فرانس برس،
٢٠١٤/٩/١١.

أساليب القتال

قد يكون الميدان السوري هو الأنسب للحكم على أداء تنظيم داعش العسكري، حيث خاض عدداً وفيراً من المعارك ضد المعارضات المسلحة والجيش السوري كلاً على حدة. وأظهر شريط تلك المعارك أساليب قتال وتكتيكات متشابهة، تحولت إلى سمات قتالية خاصة بهذا التنظيم. وإن أضاف على مواجهاته مع الجماعات المسلحة من جبهة نصرة وأحرار الشام وحركة عزم والجبهة الإسلامية والجيش السوري الحر... أسلوب الاغتيال لقياداتها وكوادرها بواسطة الكمائن والسيارات المفخخة، بهدف كسر معنوياتها وخلخلة بنيانها، مع دعوته الدائمة لها لإعلان التوبة والالتحاق بصفوفه. وقد نجح في استقطاب وحدات عسكرية أنشقت عن تلك الجماعات في مناطق الرقة ودير الزور وأدلب وحلب والقلمون. وبالطبع، كان لداعش اليد العليا في أغلب المواجهات حيث امتلكت عناصر المبادأة والمفاجأة والتوقيت وانتقاء الأهداف، فحققت انتصارات، سمحت لها بطرد خصومها من مناطق شاسعة في شرق وشمال سورية. وليس من فارق كبير بينها وبين بقية الجماعات "الجهادية المتصارعة" معها، "فكلها تسعى إلى دولة سنية ثيوقراطية خاضعة لقانون الشريعة، والقتال الدائر بينها، هو في الواقع، معركة على الغنائم أكثر من كونها خلافات تتعلق بالأهداف الطويلة المدى"^(١٧).

على رغم التقارب بين الجماعات "الجهادية" في المنبت العقائدي والأهداف المعلنة عن إقامة حكم الشريعة في مناطق نفوذها، فقد اتّسمت المعارك التي دارت بينها، بالضراوة والوحشية حيث سقط أكثر من سبعة آلاف قتيل حتى الآن، بحسب المرصد السوري المعارض. فضلاً عن سلوكياتها البربرية بتصفية الأسرى وسبي النساء ووضع اليد على الأموال والممتلكات. وهذا يجعلنا نتساءل في حال قُدر لهؤلاء الانتصار، أي سورية يعدونها بها، وما المستقبل الذي ينتظر شعبها!!

أما عن طريقة إدارة داعش لحروبها المستمرة، فهي تتحاشى، قدر الإمكان، فتح عدة جبهات كبرى في آن واحد، خشية تبديد الجهود، رغم القدرات البشرية والتسليحية التي راكمتها في السنتين الماضيتين. وتلجأ، عادة، إلى اختيار أهدافها بدقة، وغالباً تكون نقاط ضعف مرصودة في جبهة الخصم، مثل بلدة عدرا بالريف الدمشقي، أو منطقة نائية لا تحظى بالتغطية الدفاعية اللازمة، كحقل الشاعر النفطي الذي تعرض للهجوم مرتين من قبل مسلحيها خلال بضعة أشهر فقط. واضطر الجيش السوري لاستعادته في المرتين. وتقتضي الموضوعية الإشارة إلى أنه ليس بمقدور أي جيش في العالم، مهما بلغت قوته، الانتشار على كامل جغرافية وطنه.

وإذا نظرنا إلى خارطة المعارك التي خاضتها داعش على الأراضي السورية، لوجدنا، أن أغلبها استهدف مواقع كبيرة لكنها معزولة، ومقطعة الأوصال ويتم تزويدها بالمؤمن

(١٧) باتريك كوكبيرن،
داعش وعودة الجهاديين،
مرجع سابق، ص ٥٦.

والذخائر من الجو. وتبعد عشرات وربما مئات الكيلومترات عن نقاط ارتكاز القوة السورية، مثل مطار الطبقة والفرقة ١٧ واللواء ٩٣ وغيرها. ولاحقاً، اعتمدت جبهة النصرة الأسلوب ذاته، بهجماتها المتكررة، على مدى سنة ونصف، ضد معسكري الضيف والحامدية المعزولين في ريف أدلب، اللذين سقطا في نهاية العام ٢٠١٤.

لقد اتسمت معظم عمليات داعش العسكرية بالطابع الهجومي لضمان ميزاتٍ المبادأة والمفاجأة الضروريتين لتوفير عنصر النجاح. وهذا يتطلب إنجاز المهمة بالسرعة القصوى، ولو أدى الأمر إلى ارتفاع نسبة الخسائر، لكي لا تفرق القوة المهاجمة بمواجهات استنزافية على غرار ما يجري في مدينة كوباني الكردية. ولذا حين تقرر قيادة داعش مهاجمة هدف ما، تحشد أعداداً كبيرة تصل نسبتها، أحياناً، إلى (٥ - ١) قبالة عديد الحامية المدافعة عن الهدف المعني.

تكتيكات داعش

عادة، تكون إشارة بدء المعركة كناية عن إقدام انتحاري داعشي أو أكثر على مهاجمة نقاط الاختراق الأولى (سور أو بوابة رئيسية) بواسطة الآليات المفخخة بأطنان من المواد المتفجرة. وتحت تأثير حالة الهلع والصدمة الناجمة عن هول الانفجار، يندفع نسق من المقاتلين الانغماسيين، لخلخلة نظام الخصم الدفاعي، وفتح الطريق أمام المهاجمين، كما حدث في مقر الفرقة ١٧ واللواء ٩٣ ومطاريّ منغ والطبقة وغيرها من الأهداف... وبعد الاطمئنان إلى نجاح الانغماسيين "بتكسير" القشرة الدفاعية الصلبة، تبدأ كتلة الهجوم الرئيسية بالاندفاع مستخدمة تكتيك الموجات المتعاقبة لإرهاق القوى المدافعة والسيطرة على الهدف. وقد يسبق العمليات الانتحارية تمهيد ناري بالصواريخ والقذائف، يدوم لساعات أحياناً، كما حصل في الهجوم على مطار ديرالزور. ولوحظ أن التمهيد الناري الكثيف، بدأ يندرج ضمن خطط داعش الميدانية، بعد الغنائم الكبيرة التي جمعتها في معارك الصيف الماضي، وما أحدثته من تبدل في البنية القتالية، وتحولها إلى نظام الوحدات الكبيرة شبه النظامية.

وإذا انتقينا مطار الطبقة كمثال حيّ على أسلوب قتال تنظيم داعش، فقد سقط بيدها إثر معارك ضارية، تكبدت فيها نحو ٧٠٠ إصابة خلال ستة أيام بلياليها من القتال. بعدها، أقدم التنظيم على إرسال خمسة انتحاريين بشاحنات مفخخة، نجحت إحداها بتدمير بوابة رئيسية، ما سمح للمجموعات المهاجمة بالدخول إلى حرم المطار الذي شهد قتالاً تلاحمياً. وقبل إرسال الشاحنات المفخخة، نجح مقاتلو داعش بتدمير وإسكات رشاشات الـ ٢٣ ملم بواسطة الصواريخ الحرارية. وكانت نيران هذه الرشاشات تحصد المهاجمين من مسافة كيلومترات وتمنعهم من الاقتراب. لقد قاتل عدد كبير من حامية المطار حتى النهاية، ولو

فُدر لها الصمود لبضعة أيام أخرى، لتضاعفت خسائر القوى المهاجمة. هذا السيناريو تكرر، تقريباً، في هجمات داعش ضد بقية الأهداف السورية.

بالعودة إلى تكتيك الموجات المتلاحقة فهي تركز، على إسقاط الهدف غير عابئة بحجم الخسائر التي تلحق بها، وذلك لإظهار صورة داعش الأسطورية التي بمقدورها تحطيم أي قوة تواجهها. هذا الأسلوب القتالي ينم عن جرأة وتصميم عالين، لكسب المعركة بأي ثمن. لكن في المقابل، سرعان ما تظهر عوارضه السلبية، لا سيما سرعة النزف وفداحة الخسائر البشرية عند القوى المحدودة القدرات. ويُمكن أن تتحمل تكاليفه جيوش دول لديها فائض في عديدها، وتملك القدرة على تعويض خسائرها بالسرعة اللازمة. وقد شهدنا، في القرن العشرين، نموذج قتال الموجات أثناء الحرب الصينية - الفيتنامية (١٩٧٩) والحرب العراقية - الإيرانية (١٩٨٠ - ١٩٨٨).

على مقلب آخر، نجد أنه إذا تعثر هجوم قوة عسكرية نظامية ضد هدف معاد، تطلب منها قيادتها، عادة، الثبات والتمسك بالمواقع التي وصلت إليها، إفساحاً في المجال لنيران الطيران والمدفعية، لكي تصبّ حممها على النقاط الدفاعية للخصم المعيقة لمسالك التقدم. وبعد التأكد من "تليين" تلك النقاط وتخلخل تحصيناتها، تستأنف القوة المهاجمة تقدمها نحو أهدافها. في حين أن تنظيمات مثل داعش والنصرة، تلجأ في وضعية كهذه إلى تكتيك الاستعانة بالمزيد من الانتحاريين، لفتح مسارات الانسداد و"تسليتها" أمام موجات مقاتليها. ومثال على ذلك، ما حدث في كوباني، عندما أقدم تنظيم داعش، عبر الحدود التركية، على إرسال خمسة انتحاريين دفعة واحدة في اليوم الخامس والسبعين لبدء المعركة، لإضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين الأكراد الذين نجحوا بالثبات، وتحميل داعش نحو ١٠٠٠ قتيل حتى الآن. علماً أن التنظيم التكفيري استخدم عشرات الانتحاريين في تلك المعركة الاستنزافية من دون تحقيق النتائج المرجوة. لقد نجحت داعش بإعداد مئات الانتحاريين عبر قدرتها على تخدير عقولهم بأفيون التكفير، وقولبتها وفق منطوق الكراهية والحق تجاه الآخر من أبناء وطن والدين الواحد، وإيهامهم بأن طريق الجنة يمرّ عبر القضاء على هذا الآخر، ولو تطلب الأمر التضحية بالنفس وتفجيرها..

في مجال آخر أظهرت المعارك أن لدى داعش منظومة قيادة وسيطرة واتصالات حديثة ومتطورة، عجز الجيش السوري عن اختراقها. ومن المحتمل أن تكون بعض الدول قد زودتها بمعلومات استخبارية وبصور للأقمار الاصطناعية عن مسارح العمليات التي دار القتال في ميادينها. والمفاجأة، أن الولايات المتحدة التي تمتلك قدرات تكنولوجية هائلة، لم تسع إلى تعطيل تلك المنظومة أو التشويش عليها، ما يزيد الشكوك تجاه جدية الحرب الأميركية على الإرهاب.

تكتيكات مضادة

- بما أن تكتيكات داعش متشابهة ومتكررة، يمكن برزمة تدابير عملانية وقائية الحد من فعاليتها، ونعتقد أن القوى التي تواجهها ليست بغافلة عنها:
- ١ - اعتماد مفهوم الضربات الاستباقية بواسطة النيران أو الهجمات المباغته، لنزع المبادرة من يدها، وإشعارها بعدم الأمان، ما يؤدي إلى إرباكها وشل اندفاعتها.
 - ٢ - تحصين المسارب الإجبارية إلى مداخل المواقع الدفاعية، بخطوط متعرجة من الدشم الخراسانية، ما يُصعب دخول الآليات إليها. ولزيادة الأمان توضع عوارض حديدية قوية (بوابات احتياطية) على متعرجات المسارب لا تفتح إلا بالأمر، وتكون تحت مرمى رشاشات ثقيلة أو متوسطة منصوبة في نقاط عالية ومشرفة. هذه التدابير تحد كثيراً من نجاح العمليات الانتحارية التي تنصّر أي هجوم لداعش.
 - ٣ - تكليف وحدة المدفعية التابعة للموقع الدفاعي المعنى، بإقامة السدود النارية على خطوط التجمع والانطلاق المحتملة، بهدف بعثرة القوى المعادية قبل شروعها بالهجوم.
 - ٤ - تشكيل قوة احتياطية على مستوى كل قطاع عسكري، تكون جاهزة لنجدة أي موقع يتعرض لهجمة مباغته من تنظيم داعش وغيرها.
 - ٥ - يلعب سلاح الجو دوراً فاعلاً في الحرب على داعش وأشباهاها من قوى غير نظامية، وبخاصة الطائرات غير المأهولة المزودة بصواريخ جو - أرض، حيث يمكنها تادية مهام الاستطلاع والمشاركة القتالية في آن واحد. وكذلك الطائرات العمودية لكونها قادرة على قصف أهداف نقطية دقيقة، تقلل من احتمال وقوع الإصابات بين المدنيين. لقد برز دور سلاح الجو جلياً في معركة ديرالزور الأخيرة، حين نجح بضرب تجمعات المسلحين وكبح اندفاعتهم الهجومية. وتزداد أهميته في عمليات المشاركة بالدفاع عن المواقع المحاصرة...
 - ٦ - التركيز على الجهد الاستخباراتي، لخرق بنية داعش، بقصد معرفة نياتها مسبقاً، والإحاطة بقدراتها وتحركاتها الميدانية، ما يسمح بخوض المعركة ضدها وفق تصورات واضحة ومدروسة.

الحرب النفسية

تُولي داعش هذا النوع من الحرب أهمية قصوى، لا تقل عن العمل الميداني، حيث تعتبر "الإعلام نصف الجهاد". وقد نجحت باستخدام وسائل الميديا الحديثة، والاستفادة من قدراتها في مجالات شتى. وتسعى من خلال بث الأفلام القصيرة المروجة لأفكارها "بطولاتها" القتالية إلى استقطاب شباب صغار السن يُسوا من التهميش السياسي والاقتصادي في مجتمعات أنهكها الإفساد والاستبداد وضياع الهوية الوطنية. ويأتي بعضهم من دول غربية، يعانون فيها أزمة عدم القدرة على الاندماج في مجتمع حديث،

فيعيشون حالاً من التيه والضياع. يلتحق هؤلاء المغرر بهم باسم الدين، زوراً، بداعش ومثيلاتها من جماعات ما قبل التاريخ، ظناً منهم أنها طريق الخلاص على الأرض وفي السماء. ويقول الباحث الأردني سليمان بخيت "إنه بحسب رؤية داعش، أنت تفوز سواء عشت أو مت، إذا قُتلت تجتمع بالنبي والله، وإذا لم تقتل ستبقى ماضياً في رحلتك!!" (١٨). إلى جانب وسائلها الاعلامية، تستفيد داعش من التغطية المنحازة لبعض الفضائيات العربية المدعومة بمال النفط، التي دأبت على قلب الحقائق والتحريض وإثارة الغضب وبث الكراهية ضد جماعات معينة، وتصوير الأخ والصديق عدواً. هذه الفضائيات عن دراية أو جهل، تسهم في توفير الأرضية اللازمة لانتعاش ظواهر التعصب والتطرف، وتلعب دور محامي الشيطان بالدفاع المستتر عن إجرام الجماعات التكفيرية وإيجاد قرائن تبرئتها. من ناحية أخرى، تعمل داعش من خلال البروباغاندا الصادمة، على إبراز عناصر قوتها بطريقة وحشية مستفزة للأبصار والمشاعر، عبر مشاهد الإعدامات الجماعية لجنود أسرى راكعين على حافة خندق طويل سرعان ما يتحول إلى مدفنهم. كما جرى في قاعدة سبايكر الجوية العراقية، وفي مقر الفرقة ١٧ السورية وغيرها. وكذلك تصوير عمليات الذبح وقطع الرؤوس وحزّ الرقاب، وتوعد كل من لا يشاركها مفاهيمها الظلامية بمصير كهذا. والقصد من إبراز وحشيتها العارية ترهيب المواطنين الخاضعين لسيطرتها، ودبّ الرعب في قلوب جنود الأعداء، ودفعهم للهرب من المواجهة والنفاد بجلدهم قبل وصول سكاكين داعش إليهم. ويقول المعارض السوري هيثم المناع "إن داعش توثق لاغتيالها الكرامة الإنسانية عبر إعلامها، معتبرة الجريمة فضيلة والتوحش جهاداً والعدوانية واجباً، وقتل الآخر ضرورة لإقامة حكم الله على الأرض" (١٩).

يبدو أن قادة داعش وأشباهاها يقتفون أساليب المغول، الذين كانوا إذا دخل محاربوهم مدينة أو بلدة، يعمدون لقطع رؤوس عدد كبير من أبناءها، فاسحين المجال لأقلية منهم بالفرار، لنقل مشاهداتهم المرعبة إلى سكان الحواضر المأهولة الأخرى، وذلك لإشاعة الخوف والهلع في بلاد الأعداء. ويروى أن مجرد اقتراب جحافل جيوشهم من مدينة ما، كان كافياً لتسابق أهلها وحاميتها العسكرية بالهرب خوفاً مما ينتظرهم. إن المغول الجدد يعولون على فعالية بروباغاندا القتل والذبح ومردودها الذي قد يفوق تأثير الحرب العسكرية...

الحرب المزعومة

تحولت حكاية الولايات المتحدة مع استيلاء الوحش، ومن ثم السعي لقتله إلى تراجيديا مضحكة، رغم مأساتها وكلفتها الباهظة الثمن على الشعوب النكوبة. فطالما حظيت قوى التطرف الدينية برعايتها، فرضت من أثناء حلفائها الشرق أوسطيين، كما حصل مع

(١٨) صحيفة الشرق الأوسط، ٢٠١٤/١١/٣٠.
 (١٩) هيثم المناع، خلاقة داعش، مكتبة بيسان، بيروت، ٢٠١٥، ص ٧٨.

طالبان والقاعدة وداعش وأشباههم، بقصد استثمارهم في محاربة أعدائها من الاتحاد السوفياتي، ثمانينات القرن الماضي، إلى إيران ومحور المقاومة في وقتنا الحاضر. وإذا رصدنا الأحداث بدءاً من شهر حزيران/يونيو الماضي، للحظنا برودة في رد فعل واشنطن تجاه غزوة داعش لعدد من محافظات بلاد الرافدين، وغض الطرف عن الدور الفاضح لتركيا ودول عربية أخرى. وقد عبر الرئيس أوباما في مقابلاته مع الصحافي توماس فريدمان (٨ آب/اغسطس) عن لا مبالاة تجاه ما يجري من جرائم في الموصل وجبال سنجار وتلعفر بحق المسيحيين والإيزيديين والتركمان الشيعة، واعتبر أن محاربة قوى التطرف تقع على عاتق العراقيين أنفسهم.

لكن بعد أيام قليلة، تبدل الموقف الأميركي من سياسة الاحتواء والاستثمار إلى إعلان المواجهة مع تنظيم داعش، لحظة تخطيه الخطوط المرسومة له، حين غير وجهة هجومه من بغداد نحو الشمال، فاحتل مدينتي سنجار وعمار اللتين تسكنهما الإقلية الإيزيدية، وطرد قوات البيشمركة منهما. وتحوي مدينة زمار أباراً نفطية وسد الموصل على أراضيها، وهي مجاورة لمدينة دهوك الكردية. وبدا، آنذاك، دور تركيا ملتبساً، فرغم علاقتها الوطيدة مع البرزاني، لمح إلى إسهامها في توجيهه صفقة له على خلفية ضم كركوك، وإعلان نيته الدعوة للاستفتاء على الاستقلال. هذا الكلام يثير خشية الأتراك من انتقال عدوى الانفصال إلى هضبة الأناضول. في حين سارعت إيران إلى تقديم المساعدات العسكرية والخبرات لكل من حكومة بغداد وكردستان لصد الهجمة الداعشية. واعترف البرزاني بـ "أن إيران كانت من بين أوائل الدول التي أرسلت أسلحة إلى البيشمركة، وأحدث وصول هذه الأسلحة فرقاً في قدرات القوات الكردية" (٢٠).

في تلك المواجهة، لم يكن أداء قوات البيشمركة بأفضل من الجيش العراقي، وربما هذا الأمر فاجأ الأميركيين ودفعهم للتحرك خشية تمدد داعش إلى قلب إقليم كردستان، التي تحظى بموقع متميز على خارطة إستراتيجية مصالحهم. إذ "تستضيف" أربيل قاعدة استخباراتية متقدمة للتجسس على إيران والعراق وسورية وحتى تركيا، يديرها عشرات الخبراء والضباط الأميركيين. وتحوي محافظات كردستان نحو ١٤ حقلاً نفطياً، في باطن أرضها، تشرف على أغلبها شركات أميركية. كما يحكى عن اكتشاف مادة اليورانيوم في موقع بين بلدي شقلاوة وبيجال الجبلتين؛ ولا ننسى أن كردستان هي إحدى قواعد الارتكاز المحورية للسياسة الأميركية الشرق أوسطية، وتربطها علاقات إستراتيجية مع الكيان الصهيوني.

لهذه الأسباب وغيرها، سارعت واشنطن لإرسال شحنات الأسلحة والمدربين إلى قوات البيشمركة. وبدأت مع مطلع شهر آب/اغسطس، بتنفيذ الضربات الجوية ضد مواقع داعش القريبة من سد الموصل، وشكلت تحالفاً دولياً لمحاربة خطر التنظيم التكفيري!! لكن

هذا التحالف لم يظهر حماسة في حربه الجوية حتى الآن، حيث لم تتعد غاراته الألف غارة خلال أكثر من ثلاثة أشهر. ولتبيان الأمر، سنجري مقارنة بسيطة: في العام ١٩٩١، ترأست الولايات المتحدة حلفاً دولياً من ٣٦ دولة لتحرير الكويت. وقد مهدت للعملية البرية بقصف جوي امتد ٤٣ يوماً، فنفذت، آنذاك، طائرات التحالف نحو ١١٠ ألف غارة فضلاً عن إطلاق مئات صواريخ التوماهوك الجواله، ما أدى إلى خلخلة مفاصل الجيش العراقي وتدمير الجزء الأكبر من ألياته وعتاده. وفي مثال آخر: نفذت إسرائيل خلال ٢٢ يوماً من حرب ٢٠٠٦، قرابة ١٧ ألف غارة على مناطق تواجد المقاومة المقدرة بنحو ٤٠٠٠ كلم^٢، أي بمعدل ٥٠٠ غارة يومياً.

وإذا أجرينا حساباً بسيطاً نجد أن معدل ضربات التحالف الجوية لا تتعدى العشر غارات يومياً ضد أهداف منتشرة فوق مساحات شاسعة في الميدانين العراقي والسوري. هذا مع التغافل عن طريقة تشكيل التحالف، واستبعاده روسيا وإيران وسورية، وضمه بين ظهرانيه دولاً لم تسقط مراهناتها ورعايتها للعديد من الفصائل المتطرفة حتى الآن!!!

جدوى الحرب الجوية

لا تبرز فعالية الضربات الجوية إن لم تتناسق مع جهد ميداني على الأرض، فمن المستحيل كسب الحرب من دون مؤازرة وحدات برية قادرة على مهاجمة مواقع العدو والاستيلاء عليها. وكان رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق الجنرال دان حلوتس، قد أعلن بحرقه خلال "حرب لبنان الثانية" أن الطائرة تقتل، تدمر، تقدم الدعم الناري، لكنها غير قادرة على زرع علم فوق تلة". ويزداد الأمر صعوبة حين يكون الخصم قوة غير نظامية.

وتشير الدلائل، أن داعش اتخذت تدابير احترازية لحماية بنيانها القتالي من الضربات الجوية مثل إخلاء المقرات والمراكز ومعسكرات التدريب المرصودة، والحد من التحركات النهارية. كما قللت من استخدام وسائل الاتصالات والانترنت والهواتف النقالة، وركزت على اعتماد نظام المراسلين البدائي لنقل الأوامر والتعليمات بين الوحدات القتالية. وابعدها، قدر الامكان، عن الأماكن المفتوحة التي يسهل رصدها من الجو. وأقدمت على توزيع الهيكل القيادي وقوات الاحتياط داخل المدن والبلدات المأهولة بالسكان، بعدما أجبرتهم على رفع راياتها فوق أسطح منازلهم لتضليل الطائرات المغيرة... وقد ألمح وزير الدفاع الأميركي المستقيل تشاك هاغل بشهادته أمام لجنة الخدمات المسلحة في مجلس النواب "بأن داعش تتملص من أجهزة المخابرات الأميركية. وأن مقاتليها اضطروا إلى تغيير تكتيكاتهم، والعمل بالمجموعات الصغيرة، وإخفاء المعدات الكبيرة وتغيير طرق اتصالاتهم" (٢١).

إذا كانت مقومات الجهد البري متوافرة جزئياً في العراق من خلال تشكيلات الجيش

(٢١) ريم عبد الحميد، نقلاً عن موقع ديلي بيست الأميركي، ١٤/١١/٢٠١٤.

النظامي ومتطوعي الحشد الشعبي والبيشمركة وأبناء العشائر السننية المناهضة لداعش، فماذا عن سورية؟ لقد استبعد الأميركيون الجيش السوري من الحرب الدولية على الإرهاب، مساندة لقوى إقليمية وعربية ترى في قيادة الرئيس الأسد العدو الأول لها. وكبديل، قرر التحالف صرف ٥٠٠ مليون دولار، لتدريب بضعة آلاف من مقاتلي المعارضة "المعتدلة" في السعودية وقطر والأردن وتركيا، لمواجهة التنظيمات الإرهابية والجيش السوري في أن واحد!!

المراهنة الخاسرة

إن المراهنة الغربية على بضعة آلاف من المقاتلين لم يباشروا تدريباتهم بعد، لحسم نتائج حرب عجزت عنها قوى دولية وإقليمية تدعو إلى السخرية. وفي خطوة استباقية لإبطال قرارات التحالف، أقدمت جبهة النصرة على طرد جبهة ثوار سورية وحركة حزم العلمانية من بلدات وقرى جبل الزاوية في ريف إدلب، وكلاهما مصنفان قوى معتدلة وفق المعايير الغربية. وقد تمّت مصادرة أسلحتها، ومن ضمنها صواريخ تاو المضادة للدبابات، التي سبق وقدمتها المخابرات الأميركية لمقاتلي حركة حزم. وقد ساعدت هذه الصواريخ جبهة النصرة في معركتها لإسقاط معسكري الضيف والحامدية. وأعرب رامي عبد الرحمن (المرصد السوري المعارض) عن "مخاوفه من أن تصبح مناطق شمال سورية مقسمة بين التنظيمين المتشددين داعش والنصرة" (٢٢).

تسعى دول عربية ومعها إسرائيل ضمناً، لتسويق "اعتدال" جبهة النصرة، متجاهلة أنها الممثل الشرعي لتنظيم القاعدة في بلاد الشام. وأن سلوكياتها وأساليبها شبيهة بداعش، "ولعل من المفيد التذكير بممارسات جبهة النصرة الأولى، من قطع عنق تمثال أبي العلاء المعري وهدم الأضرحة وقتل الجنود السوريين بالطريقة ذاتها التي تحدث في العراق. واعتبارها الحرب في سورية حرباً مذهبية" (٢٣). ناهيك عن محاكمها الشرعية في مناطق نفوذها، وما تصدره من أحكام بحق المواطنين، كقطع الأعناق وبتر الأطراف لأتفه الأسباب، بذريعة تطبيق الشريعة الإسلامية!!! وكذلك قتل أبناء الأقليات الإسلامية والمسيحية، ومن خالفهم الرأي من أهل السنة، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم. ويحتاج المرء إلى مجهر، لتمييز التباين والفروق بين جبهة النصرة وداعش وأخواتهما من تنظيمات متطرفة. ويصح فيهم قول الخبير الأمني المصري اللواء رفعت عبد الحميد "هؤلاء جميعاً يأكلون من الطبق ذاته، مع اختلاف التسميات" (٢٤).

إن الحرب الجوية التي تخوضها الولايات المتحدة وحلفاؤها منقوصة، وتفتقد إلى إستراتيجية واضحة. ويبدو أن استمرارها على هذه الوتيرة البليدة، قد يؤدي إلى نتائج مغايرة تصبّ في مصلحة المتطرفين المدّعين الدفاع عن الإسلام والمسلمين بمواجهة القوى

(٢٢) صحيفة الشرق

الأوسط، ٢٠١٤/١١/٢.

(٢٣) هيثم الناع، خلافة

داعش، مرجع سابق، ص

٨٤.

(٢٤) صحيفة الشرق

الأوسط، ٢٠١٤/١١/٧.

"الصليبية". ولأجل نجاح تلك الإستراتيجية، فعلياً، يجب أن تشمل الحرب على الإرهاب كل القوى المتطرفة، والإقلاع عن الضربات الاستعراضية المحدودة الفعالية، وتكثيفها بقدر ما تتطلب حاجات المعركة. وفي هذا المجال، لا بدّ من التعاون مع الجيش السوري الذي اكتسب خبرات غنية في مقارعة داعش وأشباهها من المتطرفين. تبقى قناعاتنا المطلقة بأن القضاء النهائي على هذه الجماعات الشاذة فكراً ومنهجاً وسلوكاً، لن يتحقق إلا على أيدي قوى الاعتدال والتنوير الإسلامية والمدنية المتراصة ضمن جبهة موحدة على المستويين العربي والإسلامي، مهما تطلب الأمر من جهد ووقت وصبر لتحقيق المبتغى.

أبعاد الصراع

هذا المبتغى ليس سهل المنال، ويحتاج إلى إستراتيجية مركّبة تلحظ البعدين الآني والمستقبلي في عملية الصراع. البعد الآني، يُعطي الأولوية للجهد العسكري والأمني للخلاص من طاعون التكفير والقضاء على الجماعات الحاملة لوبائه. وفي تقدير بعيد عن التضخيم والتقليل، وهو خلاصة لقراءة شريط المعارك التي خاضها تنظيم داعش، نجد أن أغلب إنجازاته الميدانية تحققت قبالة قوى لا حافزية لديها على القتال، مثلما حدث في غزوات شهر حزيران/يونيو العراقية، أو ضد أهداف معزولة عن قيادتها وقواعد تموينها منذ وقت طويل، كما شهدنا في معارك الفرقة ١٧ ومطار الطبقة بمحافظة الرقة السورية. لكن في المقابل، لحقت بهذا التنظيم وأشباهه هزائم مكلفة، متى واجه خصماً يمتلك إرادة القتال ويحسن استخدام قدراته، والأمثلة على ذلك لا حصر لها. نكتفي بالإشارة إلى معارك فكّ الحصار عن ناحية أمرلي وجرف الصخر وبيجي وسد الموصل وتحرير خط الفلوجة سامراء وتطهير جبل سنجار وقراه... وكذلك معارك دير الزور وكوباني ومورك وحمص وريف حماة وحلب ونبل والزهراء والقلمون والريف الدمشقي...

الميدان العراقي

في الميدان العراقي، أشّرت تلك المعارك إلى بدء عملية تعافي الجيش النظامي التي تحتاج إلى المزيد من الوقت، قدره الجنرال مارتن ديمبسي بسنوات عديدة. وتزايد قدرات قوات الحشد الشعبي والبيشمركة وعشائر الأنبار، وجميعها يجب أن تعمل تحت أمره الجيش ووفقاً لخطته العامة. وترافق التقدم الميداني مع تحسن الأداء الحكومي، وأولى تجلياته فكّ الاشتباك مع الخارج وتحسين ظروف العملية السياسية في الداخل. هذا الأداء يُسهم، تدريجاً، بتخفيف الاحتقانات ونزع الذرائع المعيقة لترميم النسيج الاجتماعي، فمن دون

وحدة المكونات العراقية، لا سيما لدى الشيعة والسنة، لا يمكن الانتصار على قوى الظلام والتكفير. ويبدو أن حكومة العبادي متنبهة لهذا الأمر، وتعمل بإخلاص على تحقيقه. ما يريح في المشهد العراقي، أن داعش بدأت تصطدم بقوى كانت تؤازرها على خلفيات كيدية سابقة. ونظراً لتشددها المقيت، تحمل بذور فنائها في داخلها، لكونها ترفض الآخر لأقل التمايزات، وتكفر لأتفه الأسباب. والتكفير مدعاة للقتل، كما فعلت مع عشائر البونمر والبوفهد والعبيدي الأنبارية، وعشيرة الشعيطات في ريف ديرالزور. وتسعى لفرض مفاهيمها الدينية الشاذة على الناس، بفعل الذبح والصلب وفقء العيون وبتر الأطراف. وهذا السلوك سوف يسرع بانفضاض الحواضن الشعبية من حولها، ويسهل عملية القضاء عليها.

الميدان السوري

أما في الميدان السوري، فتواجه داعش خصماً صلباً متمثلاً بالجيش السوري الذي اكتسب مهارات كبيرة في منازلة هذا النوع من الجماعات "الجهادية"، ويبدو أنه اعتاد أساليب قتالها، وبات أكثر حرفة في مواجهتها. وباستثناء بعض عمليات الاختراق الموضوعية التي تطل أهدافاً ثانوية بين وقت وآخر، يمكن القول، لقد كُبحت الاندفاع الداعشية، وآخر دلائلها نتائج معارك ريف حماة وديرالزور... ما تحدثنا عنه من تبدل مزاج بعض الحواضن الشعبية العراقية وانزياحها عن تأييد داعش والتصادم معها، يبرز أكثر وضوحاً على الساحة السورية، بعد فتح الصراع المسلح الباب لسيطرة الجماعات الدينية المتطرفة على الميدان. هذا المعطى دفع بشرائح واسعة من الكتلة الرمادية لتفضل الوضع القائم، بما له وما عليه (مع الأمل بتطويره)، على قوى ظلامية طاردة من رحم التاريخ، تسعى لاستحضاره بطريقة وحشية لا سابق لها.. هذان المعطيان العملائي والشعبي، قد يمهدان لانتقال الجيش السوري من مرحلة المكتسبات التكتيكية إلى الهجمات العملياتية الأوسع، التي ربما تفتح الطريق لمتغير ميداني على المستوى الإستراتيجي يمهد لنضوج تسوية سلمية للصراع، لا مكان فيها لقوى التطرف والتكفير.

البعد المستقبلي

هذا البعد يمسّ مسائل حساسة مرتبطة بإعادة تشكل المفاهيم والمنظومات القيمية لدى المواطنين، تُبدل في منهجيات مقارباتهم لفكرة المواطنة والتعايش وقبول الآخر لأن التطرف بكل أشكاله يكمن في الأفكار قبل تحوله إلى سلوك عصابي مدمر. لذا نعتبر معالجته أكثر تعقيداً من الحرب العسكرية، وتحتاج صبراً ووقتاً طويلاً، لتوحيد القوى المتضررة من

ثقافة الغلو والتطرف المعيقة لسبر مجتمعاتنا العربية والإسلامية طرائق التقدم والحدثة. تتطلب معالجة هذه الآفة جهداً استثنائياً من المرجعيات والحركات الإسلامية المعتدلة، محوره تجريم قوى التكفير وتحريم الالتحاق بها، وتوعية ضاللتها أمام الأجيال الشابة. وتنقية الفكر والتراث الإسلاميين مما علق بهما من أدران فتاوية وروايات وأحاديث مسمومة يغرف المتطرفون من منابعها الأسنة. وكذلك العمل لإلغاء برامج التعليم الديني المعتمدة في بعض الأقطار العربية، التي تحض على التعصب والكرهية، بما يخالف سماحة الدين الإسلامي وفطرته الرحبة تجاه الآخر، كأخ في الدين أو نظير في الخلق. إضافة إلى إغلاق فضائيات الفتنة بكل تلاوينها، والمدعومة من مال النفط والاستخبارات الغربية.

إن مهمة تفكيك الحالات المتطرفة واستئصالها، ليست مقتصرة على قوى الاعتدال الإسلامي وحده، فالقوى المدنية، أيضاً، مطالبة بالعمل الجاد لتوسيع مساحة حضورها العابر للطوائف والمذاهب كونه يشكل نقيض ظواهر التطرف بكل مسمياتها. ولضمان نجاح العملية العلاجية، لا بدّ من تلاقى هذان الفريقان على أرضية مشتركة، قاعدتها من جهة، مكافحة الوباء التكفيري الساعي لتفكيك الكيانات الوطنية واحتراب مكوناتها خدمة للمشروع الصهيوني؛ ومن جهة أخرى بناء الدولة المدنية الديمقراطية وأساسها فكرة المواطنة التي تحول الرعايا المنساقين في جماعات إلى أفراد أحرار يخطون مستقبلهم بأيديهم. وتضع هذه الدولة نصب أعينها تحقيق التنمية والرفاه والكرامة الانسانية.

لا يكتمل الحلم الطموح بتكوين مجتمعات عربية حديثة، من دون لحظ الصراع الوجودي مع العدو الصهيوني، الذي يشكل التطرف وجهه الآخر. لأن أي مشروع تحرري يتجاهل فلسطين هو مشروع مبتور، يسهل الانقراض عليه. والتاريخ خير معلم. فمحاولات تحقيق الطموحات الوطنية وإسقاط القضية القومية من الحسبان، أوقع المجتمعات العربية في براثن الاستتباع والإلحاق الاستعماري غير المباشر. كما أن تغليب العامل القومي على نظيره الداخلي التوافق للحرية والكرامة والتنمية، أدى إلى استيلاء دولة الخوف القمعية.

إن الحديث عن جهد مشترك لمواجهة موجات التطرف ليس ترفاً، كونها غزت معظم المجتمعات العربية. وبات التخلص من سمومها، يفترض تعاون قوى الاعتدال والتغيير على المستوى القومي. وتحقيق هذا التعاون، قد يسهم في إنتاج مشروع عربي نهضوي، يتحاشى خطايا تجارب الماضي ويشق طرائق المستقبل. كي لا يفرغ لنا التاريخ عند كل

حقة، داعش جديدة... □